دماء «محمد الدرة» كان بإمكانها أن تصون حياة هند رجب، لو أنّ...

الوفاق
محمد مهدي رحيمي

ينشر موقع KHAMENEI.IR الإعلامي مقالة للباحث والصحفي محمد مهدي رحيمي، بمناسبة «يوم التضامن مع الأطفال واليافعين الفلسطينيين»، تستعيد حادثة استشهاد محمد الدرة كرمزٍ لمعاناة الأطفال الفلسطينيين، وتربطها بمأساة الطفلة هند رجب التي استشهدت مع عائلتها عام ٢٠٢٤ برصاص جنود الاحتلال الصهيوني. وتؤكّد المقالة أنّ هذه المآسي تتكرّر بسبب صمت العالم وتطبيع العلاقات مع القتلة، مشدّدةً على أنّ دماء الأطفال الفلسطينيين لن تصون حياة أجيال المستقبل إلّا إذا تحرّكت الشعوب بخطوات عملية وحقيقية لوقف الجرائم.

قبل ٢٥ عامًا، في ٣٠ أيلول/سبتمبر، واندلاع الانتفاضة الثانية في قطاع غزّة، جذب مقطع مصوَّر قصير أنظار العالم كلّه. ظهر فيه أبٌ وابنه كانا قد شاركا في التظاهرات، ومع وصول الجنود الصهاينة لم يتمكّنا من الخروج من مرمى الرصاص. محمد الدرة ووالده جمال احتميا خلف برميل على أمل أن تتاح لهما فرصة النجاة من وابل الرصاص الصهيوني المتواصل. لكن الفرصة لم تأتِ؛ إذ أُصيب محمد برصاصة قاتلة، فيما جلس والده المكلوم عاجزًا وقد فقد الأمل بوصول سيارة إسعاف، غير آبهٍ باستمرار إطلاق النار بعدما أثقله الحزن والأسى.

عُرِضَ الفيلم الذي وثّق تلك اللحظة على إحدى القنوات التلفزيونية الفرنسية، فاهتزّت له مشاعر العالم بأسره. وفي جمهورية إيران الإسلامية، جرى تسمية هذا اليوم بـ«يوم التضامن مع الأطفال واليافعين الفلسطينيين» ليكون مناسبة سنوية تُستعاد فيها هذه المأساة وتُعكس عبرها حقيقة قضية فلسطين في الداخل الإيراني وعلى الساحة الدولية. وقد قال الإمام الخامنئي في وَقْعِ هذه الحادثة: «شهادةٌ – مثل شهادة ذلك الفتى في حضن أبيه – تُثير إعصارًا في قلوب شعوب العالم» (٢٠/١٠/٢٠٠٠). لقد أدركت الجمهورية الإسلامية والشعب الإيراني أنّ الحماية الحقيقية لأطفال فلسطين وفتيانها لا تتحقّق بالشعارات ولا بالاكتفاء ببيانات الإدانة الإعلامية و... بل تتطلّب خطوات عملية في الميدان. وبالفعل، لم يمضِ أقلّ من ٦ سنوات على استشهاد الطفل محمد الدرة، حتّى تمكّن الفلسطينيون، بفضل نضالهم وتضحياتهم، وبدعمٍ شامل من الشعب الإيراني ومساندة جبهة المقاومة، من طرد قتلة محمد من غزّة. ومنذ ذلك الحين، عملت حركة «حماس» بما استطاعت من إمكانات على حماية أطفال فلسطين والدفاع عنهم في مواجهة آلة البطش الصهيونية. على عكس إيران وجبهة المقاومة، نسيَ الناس في كثيرٍ من بقاع العالم محمد الدرة. لقد طبعوا علاقاتهم مع قاتليه، وساعدوا في ترسيخ وتثبيت حكمهم الظالم، بل وأطلقوا مشاريع اقتصادية وسياسية صاخبة من أجل توسعه وتعزيزه. كل ذلك جعل تجربة محمد الدرة تتكرّر في كل عام مع عشرات الأطفال الفلسطينيين، وتتجدّد المأساة مع طفلة أخرى من غزّة هي هند رجب، كما أشار الإمام الخامنئي بقوله: «أرأيتم ذاك الفتى الذي قُتل وهو في حضن أبيه؟! هذه ليست الحالة الوحيدة» (٢٠/١٠/٢٠٠٠). وقد أثبت التاريخ أنّ محمد الدرة لم يكن الحالة الوحيدة، وأنّ قافلة الشهداء من الأطفال الفلسطينيين تواصلت من بعده.

في ٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٤، أطلق جنود جيش الاحتلال الصهيوني المجرمون وابلًا من الرصاص على السيارة التي كانت هند رجب وعائلتها يستقلّونها في مدينة غزّة. وفي تلك الدقائق العصيبة التي اخترقت فيها الرصاصات هيكل السيارة، كانت هند على الهاتف مع مسعفي الهلال الأحمر، تستنجدهم لإنقاذ عائلتها. لكن الصهاينة، الذين قد اعتادوا منذ محمد الدرة ألّا يتركوا شهودًا أحياء، ارتكبوا مجزرة بشعة: قتلوا جميع أفراد عائلة هند، ولم يكتفوا بذلك، بل استهدفوا أيضًا فريق الإسعاف التابع للهلال الأحمر، فارتقى مسعفوه شهداء وهم يؤدّون واجبهم الإنساني.

اليوم، ٣٠ أيلول/سبتمبر، وفي مناسبة «يوم التضامن مع الأطفال واليافعين الفلسطينيين»، يبرز سؤالٌ جوهري: هل كان بالإمكان إنقاذ حياة هند رجب؟ ربما لو أنّه في اليوم الذي سالت فيه دماء محمد الدرة على تراب غزّة، والجمهورية الإسلامية كانت تبيّن للعالم الظلمَ الكامن وراء سفك ذلك الدم الطاهر، ولو أنّ شعوب العالم يومها قرّرت قطع علاقاتها مع الكيان الصهيوني والمساهمة في القضاء عليه، لكانت هند رجب اليوم على قيد الحياة.

دماء محمد الدرة كان بإمكانها أن تصون حياة هند رجب، لو أنّ شعوب العالم خطت خطواتٍ حقيقية وجذرية لوقف هذه الجرائم. واليوم، بعد مرور عامين على الإبادة الجماعية في غزّة، لا يمرّ يومٌ من دون أن تُراق دماء الأطفال الفلسطينيين على يد جنود الاحتلال الصهيوني. إنّ دماء هند، ودماء آلاف الأطفال مثلها، قد تكون كفيلة بصون حياة أطفال الأجيال القادمة في فلسطين، ولكن فقط لو أنّ...

«إسرائيل الكبرى».. خلفيّات رؤية الكيان الصهيوني التوسّعية

الوفاق
حسين آجرلو

ينشر موقع KHAMENEI.IR الإعلامي مقالةً للخبير في شؤون منطقة غرب آسيا حسين آجرلو، تتناول مفهوم ««إسرائيل» الكبرى» كأيديولوجيا تأسيسية في الفكر الصهيوني تحوّلت إلى سياسة عملية ضمن إستراتيجيات الكيان. وتعرض تصريحات الإمام الخامنئي التي أكّد فيها أنّ الهدف الأساس للصهاينة هو التوسّع من النيل إلى الفرات بأسلوب يقوم على المكر والخداع ثم القهر والعدوان. كما تسلّط الضوء على تصريحات قادة الاحتلال لتؤكّد أنّ النزعة التوسعية ثابتة في صميم المشروع الصهيوني ولا تقتصر على أفكار تيارات متطرفة وهامشية، محذّرةً من تهديد مباشر للأمن الإقليمي والسيادة الوطنية والهوية الثقافية، وداعيةً إلى جبهة موحّدة لمواجهته.

بثّت قناة «i٢٤» بتاريخ ٢٠٢٥/٨/١٢ مقابلة مع رئيس وزراء الكيان الصهيوني، بنيامين نتنياهو، تحدّث فيها بصراحة عن فكرة ««إسرائيل» الكبرى» واعتبرها مهمّة تاريخية وروحية له. شكّل هذا التصريح الواضح، في الحقيقة، تأكيداً لنظريات أنصار المقاومة الذين يرون أنّ الكيان الصهيوني يسعى إلى التوسّع الجغرافي والأمني، وأنّ هذا التوسّع لا يقتصر على الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ و١٩٦٧. يأتي ذلك في وقتٍ لا تزال فيه بعض التيارات والدول العربية وغير العربية تدافع عن فكرة «حل الدولتين» والتطبيع من أجل إرساء الاستقرار في غربي آسيا، معتبرةً أنّ المقاومة تُشكّل عبئاً باهظ الكلفة على المنطقة. غير أنّ الفهم الدقيق لهذه الحقيقة من شأنه أن يقود إلى قراءة أوضح وأعمق لمسار التحوّلات الإقليمية. تُعدّ فكرة «إسرائيل الكبرى» أيديولوجيا محورية، وتؤدّي دورًا تأسيسيًا في نزعة الكيان الصهيوني إلى التوسّع الإقليمي. هذه الفكرة، التي تستند إلى تأويلات دينية وتاريخية مغلوطة لمفهوم «إرتس يسرائيل» (أرض «إسرائيل»)، تحدّد بوضوح مجال العمل والجغرافيا التي يستهدفها المشروع التوسّعي. يزعم مروّجو هذه الفكرة، بالاستناد إلى مقاطع من «سفر التكوين» و«سفر العدد» و«سفر التثنية» و«سفر حزقيال»، أحقيّتهم في أرضٍ تمتدّ من النيل إلى الفرات. هذا الإطار الأيديولوجي يمنح إجراءات التوسّع الصهيونية شرعية دينية وتاريخية، ويحوّلها من مجرّد برنامج سياسي إلى «مهمّة هويّاتية» متأصلة في الفكر الصهيوني.

في معظم الأدبيات التي يُنتجها الغرب بل وحتى العالم الإسلامي، جرى السعي لربط فكرة ««إسرائيل» الكبرى» بالتيارات اليمينية المتطرّفة داخل الصهيونية، وكأنها منفصلة عن التيار السياسي الرئيسي الحاكم في الكيان الصهيوني. غير أنّ نظرة أعمق تُظهر بوضوح أنّ هذه الفكرة هي المحرّك الأساسي لقرارات «إسرائيل» الإستراتيجية وإجراءاتها العملية. انطلاقًا من هذا التصوّر، تُبرَّر سياسات مثل النزعة العسكرية، تأسيس الأجهزة الأمنية الواسعة، إنشاء مناطق عازلة أمنية، صياغة نظام أمني إقليمي، التوسّع الاستيطاني، احتكار البُنى التحتية، وفرض السيطرة العسكرية على الأراضي المحتلّة، بل وتُقدَّم هذه السياسات على أنّها خطوات ضرورية ولا غنى عنها في مسار تحقيق ذلك المشروع الصهيوني.

توفّر الأحزاب والحركات الحاملة لهذه الأيديولوجيا، عبر تحويلها إلى سياسة رسمية، الإرادةَ السياسية اللازمة لدفع مشروع التوسّع الصهيوني، وتجسّدها على أرض الواقع في إطار حقائق ديموغرافية وجغرافية يصعب إنكارها. ولا شكّ أنّ هذا الفهم هو الأعمق والأدقّ، بينما ربط فكرة ««إسرائيل» الكبرى» فقط بالتيارات الهامشية والمتطرّفة ليس سوى تحليل سطحي ومضلّل، يتجاهل الحقائق الميدانية والمسار التاريخي للتوسّع الصهيوني. في مثال على ذلك، يقول الإمام الخامنئي في خطابٍ له بتاريخ ٢٧ آذار/مارس ١٩٩٢: «الصهاينة لا يتخلّون عن أهدافهم؛ فهدف «من النيل إلى الفرات» الذي نطقوا به لم يتراجعوا عنه قط. لا يزال سعيهم هو السيطرة على المنطقة بين النيل والفرات! غير أنّ إستراتيجيتهم تقوم على أن يثبّتوا أقدامهم أولًا بالخداع والمكر، ثم بعد أن تثبت أقدامهم اندفعوا بالقهر والعدوان والقتل واستخدام القوة والعنف إلى أبعد مدى يقدرون عليه! وما إن يواجهوا مقاومة حقيقيّة - سياسية كانت أو عسكرية - حتى يتوقّفوا قليلًا، ثم يعودوا إلى مسار الخداع والمكر ليخطوا خطوة أخرى إلى الأمام! فإذا خطوا تلك الخطوة، عادوا مجددًا إلى ممارسة القهر والعنف. هذا هو ما دأبوا عليه منذ ستين أو سبعين عامًا إلى اليوم».

إجراءات الكيان في سبيل تحقيق نظرية ««إسرائيل» الكبرى»

لقد تحوّلت هذه النظرية، بشكلٍ علني أو خفي، إلى «رؤية إستراتيجية كبرى» تحكم مسار الصهيونية، بحيث باتت توجّه السياسات والإجراءات الأساسية للتيار السياسي والعسكري الحاكم في هذا الكيان؛ ويمكن عدّ النقاط التالية من أبرز مصاديقها:

١. تصريحات المسؤولين الرسميين: إلى جانب نتنياهو، صدرت عن مسؤولين رسميين آخرين مواقف مباشرة وغير مباشرة بشأن ««إسرائيل» الكبرى»، وكان أبرزها ما يتعلّق بدافيد بن غوريون. ففي رسالة وجّهها بن غوريون، مؤسّس الكيان وأوّل رئيسٍ لوزرائه، إلى ابنه عاموس بتاريخ ٥ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٣٧ عقب مؤتمر «بيل»، يظهر بوضوح أنّ فكرة ««إسرائيل» الكبرى» لم تكن مجرّد هدف هامشي، بل كانت حاضرة منذ البداية في ذهن مهندسي المشروع الصهيوني ومرسِمةً لخريطة طريقهم. كتب بن غوريون في تلك الرسالة: «إنّ إقامة دولة يهودية صغيرة [كما اقترحتها لجنة «بيل»] ليست نهاية الطريق، بل هي مجرّد بداية له... سوف نعزّز قوّتنا، فكلّ ما ازدادت قوّتنا ازدادت معها ملكيتنا للأرض كلّها... لن نتوقّف عن إزالة التقسيم [الحدود] والتوسّع ليشمل كامل فلسطين».

كذلك صرّح «إيهود أولمرت» في ٢٩ آذار/مارس ٢٠٠٦، عقب الانتخابات، بوضوح قائلاً: «منذ آلاف السنين ونحن نحمل في قلوبنا حلم «إسرائيل الكبرى». هذه الأرض ستبقى إلى الأبد، ضمن حدودها التاريخية، حِملًا على أرواحنا. ولن نفصل قلوبنا يومًا عن تلك الأماكن التي كانت مهد ثقافتنا، وفيها أغلى ذكرياتنا كأمّة». تُظهر هذه التصريحات أنّ قادة الكيان الصهيوني، على اختلاف اتجاهاتهم السياسية والدينية، يجتمعون جميعًا في النهاية على الاعتقاد بـ««إسرائيل» الكبرى» باعتبارها الفكرة الكلّية لليهود من أجل بسط الهيمنة على المنطقة. ومن ثمّ، فإنّ الادعاء بـ««إسرائيل» الكبرى» لا يقتصر على فئة معيّنة داخل الصهاينة، بل يمثّل قناعة راسخة لدى مختلف فئاتهم.

٢. خطط الضمّ: إنّ استمرار الاحتلال العسكري للضفّة الغربيّة ومرتفعات الجولان لأكثر من ٥٥ عامًا، والمساعي الرسميّة لضمّهما بصورةٍ قانونيّة، يُشكّل بحدّ ذاته دليلًا واضحًا على هذا الادّعاء. فهذا الاحتلال ليس مسألة أمنيّة مؤقّتة، بل نظام متكامل للسيطرة على الأرض والموارد – ولا سيّما المياه – والبشر، بما يتيح تنفيذ مشروع التوسّع. وقد قدّم يغال آلون، أحد أبرز وزراء «حزب العمل»، مباشرةً بعد حرب ١٩٦٧، خطّةً لضمّ الضفّة الغربيّة. ووفقًا لهذه الخطة، كان ينبغي أن يُلحَق غور الأردن بشكلٍ دائمٍ بأرض «إسرائيل»، باعتباره «الحدود الأمنية لـ«إسرائيل»». كان هذا الغور، من منظورٍ إستراتيجي، يُعَدّ الخطوة الأولى نحو الشرق، أي باتجاه بلاد ما بين النهرين (العراق الحالي).

٣. الإجراءات العسكرية والأمنية: تُعَدّ الإجراءات العسكريّة والأمنيّة ذات البعد الإقليمي – مثل إنشاء أنظمة وترتيبات أمنيّة في حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ من أجل احتلال صحراء سيناء، وكذلك العمليات العسكريّة في سوريا بهدف إنشاء «ممرّ داوود» – من أوضح الخطوات العمليّة في سبيل تحقيق شعار «من النيل إلى الفرات».

٤. الاستيطان: يُلاحَظ أنّ مشروع الاستيطان يُتابَع في الكيان الصهيوني كسياسة وطنيّة عابرة للأحزاب. فمع أنّ الأحزاب اليمينيّة هي الأكثر ترويجًا له، إلّا أنّ بناء المستوطنات في الضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة استمرّ على نطاق واسع أيضًا في عهد الحكومات المصنَّفة «يساريّة» أو «وسطيّة» مثل «حزب العمل». على سبيل المثال، بدأت أضخم موجة استيطان بعد حرب ١٩٦٧ في عهد حكومة ليفي إشكول من «حزب العمل». بل إنّ إسحاق رابين، الذي يُقدَّم «رمزًا للسلام»، كان من المؤسِّسين لبعض المستوطنات الصهيونيّة. هذا كلّه يكشف أنّ الاستيطان هو أداة إستراتيجيّة لتغيير الوقائع الجغرافيّة والديموغرافيّة، ولتقدّم تدريجي نحو تحقيق فكرة ««إسرائيل» الكبرى»، بصرف النظر عن لون الحزب الحاكم.

التبعات المتوقعة لفكرة «إسرائيل الكبرى»

إنّ فكرة «إسرائيل الكبرى»، في حال غياب المواجهة الجادّة وغياب المقاومة الشاملة ضدّها، يمكن أن تُمهِّد الطريق لأزمات وتحدّيات على المستويين الإقليمي والداخلي في الدول الإسلاميّة والعربيّة، ومن أبرزها ما يلي:

١. الإخلال في النظام الإقليمي القائم على الواقع الجيو-سياسي: إنّ تطبيق هذه الفكرة يعني المساس بالحدود الحالية والسيادة الوطنية لعددٍ من الدول، من بينها فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وأجزاء من مصر والسعودية. ومثل هذا الوضع يُدخل المنطقة في دوّامة من انعدام الأمن، ويجرّ الدول المحيطة كإيران وتركيا إلى صراعٍ يتّسم بتدخّلٍ خارجي واسع. كما أنّ تنفيذ هذا المشروع يعني عمليًّا إشعال حرب مدمِّرة بمشاركة مباشرة أو غير مباشرة من جميع دول المنطقة، بل وربما انخراط القوى العالمية الكبرى فيها أيضًا.

٢. تفاقم زعزعة الاستقرار: أقلُّ آثارِ تطبيقِ فكرةِ ««إسرائيل» الكبرى» عمليًّا سيكون إضعافُ السيادةِ الوطنيةِ للدولِ المحيطة. إنّ تَدميرَ الحكوماتِ الوطنيةِ واستبدالَها بكياناتٍ تابعةٍ للصهاينةِ يخلُقُ فراغًا هائلًا في السلطة يؤدي إلى اندلاعِ صراعاتٍ داخليةٍ، وتمرداتٍ وحروبٍ عرقيةٍ وطائفيةٍ تُحرّكُها شبكاتُ القوّةِ مادونَ الوطنيّةِ والعابرةُ للحدودِ أيضًا.

٣. كارثة إنسانية: يتطلب تنفيذُ هذا المشروعِ تطهيرًا عرقيًا، وتهجيرًا قسريًا، وإبادةً جماعيةً بمقياسٍ أكبر بكثيرٍ ممّا نراه في غزة، مما سيشكّل أعظمَ كارثةٍ إنسانيةٍ منذ الحرب العالمية الثانية. سينطلق سيلٌ هائلٌ من النازحين واللاجئين، وستواجه المنطقة أزمة غيرَ مسبوقة، بل ستمتد إلى أوروبا والعالم.

٤. تدميرُ التراثِ الثقافيّ: سيؤدي هذا المشروعُ إلى تدمير أغنى التراثاتِ الثقافيةِ والحضاراتِ العريقة في المنطقةِ ومحو الهويةِ التاريخيةِ للشعوبِ. ويمكنُ ملاحظةُ دلائلِ هذا الادعاءِ في التزييف المتعمد الذي يمارسه الكيانُ الصهيونيُّ في بيتِ المقدس.

في المحصلة، يمكن القول إنّ مواجهة فكرةِ ««إسرائيل» الكبرى» بصفتها مشروعًا توسّعيًا وتهديدًا جديًا لأمنِ واستقرارِ المنطقةِ أمْرٌ ضروريّ. تشكلُ هذه الفكرةُ - التي تؤكدها تصريحاتُ مسؤولينٍ في الكيان الصهيوني - خطرًا يقودُ إلى الإخلال بالنظامِ الإقليميِّ، وتفاقم انعدامِ الاستقرارِ، والتسبب في كارثةٍ إنسانيةٍ، وتدمير التراثِ الثقافيِّ. كما سيؤدي غيابُ ردّ فعلٍ جادٍّ ومقاومةٍ شاملةٍ إلى مواجهاتٍ وتحدّياتٍ كبيرةٍ للدولِ الإسلاميةِ والعربيةِ، تهدّدُ سيادتها الوطنية وتُولّدُ أزماتٍ إنسانيةٍ واجتماعيةٍ واسعةَ النطاقِ على مستوى العالم. لذلك، يتعيّنُ تشكيلُ جبهةٍ موحّدةٍ ووضعُ إستراتيجياتٍ فعّالةٍ لمجابهةِ هذا التهديدِ، حفاظًا على أمنِ وهويةِ دولِ غربِ آسيا والأمّةِ الإسلاميةِ عمومًا.